لوحات

خناثة بنونة

اللوحة الاولى :

ترسل الشاشة صورها كبهلواني مجاني ثقيل .. تريد أن تسرق الجموع من حضورها المحمل باليومي وما بعده . وكانت الجدران تسندها فتتطاول لتتكسر النظرات على امتدادها كخندق عميق . وفي الاسفل صاحت هدى :

ـ ماما .. انظري ، القلنسوة على رأسه ! كم انها جميلة !!

ورفعت الأم عينيها ، لكن الشاشة ، بل احتيالها في اللعب بالصورة لا يشد اليها سوى اهتمام عمر عقلي وزمني معينين . وتركت الجلسة وأخذت أصابعها تلعب بابرة الصوف . كانت تحقق جدوى ما ، وكان ذلك هو ما يشدها الى مرفأ لم تصله بعد . وسلت خيط الصوف من تحت جلسة هدى : (ألن تراجعي درس الحساب بعد ؟!) و (لكنني أنتظر أبي ليساعدني ..) .

اللوحة الثانية :

تتراقص السيارة على الاسفلت بمرح وحشي . وكانت القهقهات توسع ضيقها لتصيح نعيمة :

ـ أريد كأسا هنا ...

فأجابها ابراهيم :

ـ ألك بطن أم متاهة ؛ ألم تمتلئي بعد ؟!

فاعترضت صباح :

ـ أتحسبون علينا حتى متعنا ؟!

فاستدرك حسن :

ـ نستغفر الله ، انه يمزح فقط .

وتطوعت رجاء لتحكي نكتة حتى تسترد السيارة والسرعة والرحلة والوجوه ما هي له .

كانت الشقة الصغيرة تضيق بمن يجتاز بابها ؛ ولكن بهيجة تعرف كيف توزع الجوق على الزوايا ؛ ثم كيف تشحنه في الرحلة الجماعية الى عالم الدوخة والسعر ؛ ومن ثم كان بابها يكاد يظل مفتوحا للآتي والرائح .

اللوحة الثالثة :

ـ خذي دفترك ، سأحاول أن أساعدك شخصيا.

ـ ولكنك لا تفهمين في الحساب يا ماما .

ـ مع ذلك سأحاول كما قلت لك .

ـ أليس من الاحسن أن أنتظره قليلا ، فلعله يحضر .

كانت ، وباستمرار ، لا تريد أن تترك ابنتها تدخل معها لعب الازمة التي تكاد تقوض هذا البنيان الشكلي :

ـ قد يتأخر أكثر ، فعمتك تريده لامر هام .

ـ وهل كل ليلة تريده عمتي ؟!

ـ ان بينهما أشياء كثيرة .

فاحتجت الطفلة :

ـ فلماذا لا تأخذه اذن حتى تنتهي منه ؟

تلك هي المشكلة يا هدى ، أن يؤخذ أو يحضر بالتمام ، لكي لا يظل الزيف قائما ، فتكبري أنت لتكوني أيضا ضحيته .

ـ لماذا لم تردي يا ماما ، فاذا كانت عمتي تأخذه كل ليلة ، فلماذا لا تريد عمي ايضا كل ليلة ؟!

كانت هدى تطرق الباب بلا هوادة ، ولكن خديجة تشدها الى الابعد ، محاولة تأخير الارتطام ، لعل حلا يقع .

ـ سنحاول الآن أن نقرأ معا هذه الواجبات ، وعندما يحضر ، اسأليه أنت ..

اللوحة الرابعة :

أن تكوني ارادة وكفى ، فأنت لست بانسان . وتلك النوازع الاخرى هي معبرك من يومك لغدك . والتضحية دون بديل ليست سوى عقم . وتبرير رذائل الذكر وحده يعتبر مهزلة . وتطاول الرجل في المجتمعات المتخلفة يجب أن يقمع بكل شكل من الاشكال . وهذه الغباوة المطلقة تطحن المدان والبريء . ودعوة الجسد شيء حتمي . وأن تكوني جبروتا في وجهها فأنت تحاربين في جبهة هشة . وان تحملي لوحدك هموم العالمين فانك لن ترحلي . ووضع المسؤوليات في أماكنها يساعد البصر والبصيرة . ولكي تكوني من أنت، يجب أن ترتبي الاشكال والصفات بتنظيم . وهذا الجهاز ما له لا يصمت ؟!..

اللوحة الخامسة :

السيارات تعبر الشارع بتؤدة . والراجلون يسيرون في الاغلب اثنين اثنين . وفرح بريء

يناجمهـــا . فهل يكون الشارع ، هـــذا الشـــارع بالخصوص ، يملك أن يفـــرح ويفرح ؟ ولكن ســـنـــاء تدخلت :

لا أستطيع الا أن أشد عـــلى يدك ، لقـــد كنت شجاعة في تحملك .

لم تتنهد خديجة ، بل أجابت :

ـ كت في الاول ، مسحوقة بتجـــاوز مدلولات وممارسات القيم . وبعضها بالخصـــوص ، وكانت تلك هي عقبتي الوحيدة ، فأن يصل المرء الى أن يختبر فيما اقتنع به من مثل ، فاعرفي انه قد وصل الى قمـــة المعاناة ، حيث كنت قد تجاوزت ما تمثـــــله علاقاتنا البركانية ، لقد اصبحت أملك الخطو لالحق به وأتجاوزه وأمرغ كل عالم منافق في حقائقه : حقائق الليل الوسخ، غير ان هدى وبعض القناعات كانت مع ذلك تؤخر الخطو السريـــع .

مدت يدها وتناولت مشروبها ، وكانت تبتسم لكل ثنائي منسجم . وأضافت سناء :

ـ سألت عنك فاطمة لما انقطعت عني أخبـــارك .. التقيت بها في طنجة .

أعادت خديجة الكأس الى الطاولة وأجابت :

ـ لا داعي لمن يبلغك بأخباري ، فمن طبعي ـ كما قد لا تزالين تتذكرين ـ انني ألعب في وهج الشمس ، حيث ان من يستطيع أن يتجاوز اختياراته وقناعاتـــه . فان زيف المجتمع يصبح لديه درجة واطئة .

ـ انك جريئة كما أنت دائما .

ـ عفوك ، ففي البدء ، حاولت أن امنطق الحدث حسب شروطـــه الموضوعيـــة ، وأن أخلق التبريرات حسب الظروف الاجتماعية لمرحلة نعيشها جميعا : ذكرا وأنثى . غير انني اقتنعت من بعد ، ان ذلك انمـــا هـــو ورقة أخرى يرميها أحدنا : هو أو أنا ، لتبرير عنجهية همجية لصلف غابوي ما زال يعشش في ذهـــن ونفس الفحل العربي !!

قهقهات .. والمقهى يطل بعيـــــونه البلهاء عـــلى جلستهما . وكانت الصدمـــة هي أسلوبها الجديد فـــي الايقاظ . (لقد تعودت على رأيهم باللسان أو النظرة : ما هو مباح لهم ، فهو محرم عليك) . وصفقت بكفيهـــا وطلبت الكأس الثانية (اشربي) مست الكأس الشفـــة وكانت هي والعينان والاذنان تتنصت لخديجة :

ـ كنت قد قررت ان أقطع مراحـــله في مرحلة . ولقد كنت أملك جبروت القرار والتنفيذ . ولكن سفره في بعثة عمل الى احدى دول الخليج جعلني أتراجع ، لقد قلت لك : لا أريد أن ألعب في الخفاء ، فتلك الانثى الحقيقية لم تكن تريد أن تسقطه ولكنها فحسب تريـــد أن تهز وتمرغ معاييره ومعايير اجتماعية معينة . ما دام الحوار لا يسمعه الصم . أنمت القرار ، وكنت في شغل عنه ، باندفاع جديد في عملي ، وظللت أنتظر . وسرعان ما عاد : لم يطق الشمس والعمل . وكانت فرصتي .. ولك يا سناء أن تتصوري أية جدارة كنت أسقط بهـــا الاصنام والوصايا العشر التي خصصوها لنا فحسب .. كنت أنتقم للبراءة والصدق والخطو الحقيقي والعلاقـــة والبسمة والكلمة وما يسمى ولا يسمى ..

اللوحة السادسة :

ـ أبي ، أين ماما ؟

ـ لقد تأخرت .

ـ أتكون هي أيضا عند عمها ؟

مالك صامتا ، تكلم ، أين هي ؟

فغير :

ـ الا تريدين مراجعة الحساب ؟!

محكمـــة :

... باسم الحق والقانون ، تصدر هيئة المحكمة في حق السيدة خديجة عبد التواب ما يأتي :

ـ حرمانها من ابنتها .

ـ حرمانها من العلاقة الزوجية الشريفة !

ـ حرمانها من كل الحقوق التي لها على الزوج .

ـ عدم أحقيتها في أي مطلب مادي مما كـــانت تملكه سابقا .

ـ السجن لمدة ثلاث سنوات .

قهقهات ... والتفتت كـــل الرؤوس صـــوب القفص .

الهزيمة والنصر :

خسئت يا بطولة تصول داخل الدهاليز والمنصات فحسب . واشهار أسلحتكم على الوجوه التي بلا أقنعة لا يؤخـــر اليوم الفصل . وحينما يتكـــالب قانونكم وعربدتكم لتأبيد حق المالك فان الواقع من تحت أقدامكم يتحرك . والبلادة المتعمدة في عـــدم البحث عن الادواء الاساسية لا يعفيكم من الرجة المنتظرة . وهذه القـــاعة ليست غير مجزرة اضافية لآكلي اللحوم الانثوية. واللذة قد تكـــون عند المرضى ، في الفراش أو عـــلى منصة الحكم . وجيـــل آت سوف يعيش لذتـــــه بالصدق والوضوح . والعهارة الاخلاقية والفكريـــة ليست سوى تعرية لوضع مأزوم . والمرض حينما يستفحل لا بد له من علاج . وعلاج البيوت الصماء هو كسر صممها بنفس اللغة . واخراج الادواء الى الساحة العامة هو التعريـــة اللازمة لاشقياء الدعارة . وأن تستهزئي انت نفسك بمن قد استهزأ منهم التاريخ لا يجـــدي فتيلا . ومحاولتك قلب الصفحة يجب أن تكون بثمن . وحينما نمد أيدينا جماعة فلا بد أن نمدها في الاتجاه الصحيح .. لكن .. لكن كيف ومتى ؟!

المغرب